عقيدة الصلب بين المسيحية والإسلام
حوار ودراسة مقارنة

عبد الحميد أحمد أبو سليمان*

من الأمور التي تلفت النظر ـ خاصة في ضوء كثير من العروضات المبسطة المسطحة ـ حدة الخلاف بين الإسلام والمسيحية حول عقيدة الصلب في المسيحية. فبقدر ما تتمسك المسيحية بعقيدة الصلب واعتبارها رمز المحبة والتضحية والفداء بقدر ما يشتد إنكار المسلمين لها واعتبارها ضلالاً وافتراء ولا يستطيع المشاهد العابر أمام العروض المشوشة المبسطة أن يدرك معنى مقنعاً لأمر هذه الخصومة العارمة حول حادثة الصلب سلباً كان ذلك أو إيجاباً.

وإذا كان هذا الخلاف يمتد عبر عرض العلاقة التاريخية بين المسيحية والإسلام وفي أصل العداوة الناشبة بينهما فلا يصح أخذ هذا الخلاف بالبساطة التي يأخذه بها الكثير من الناس والجزم بشكل قد يبدو اعتباطياً مؤيداً بصحة موقف أو آخر دون درس ونظر شمولي متأمل، خاصة وأن الموقف القرآني المنكر لعقيدة الصلب يقف موقف المصدق للنصرانية بوصفها ديناً إلهياً ويقف موقف التكريم والإجلال للسيد المسيح عيسى بن مريم وأمّه البتول مريم ابنة عمران نبياً ورسولاً.

ولعلنا إن شئنا أن ندير حواراً بنّاءً حول العلاقة بين المسيحية والإسلام اللتين هما أعظم ديانتين عالميتين في هذا العصر وأساس لأعظم حضارتين إنسانيتين عرفهما التاريخ، فلا بدّ من دراسة هذه القضية والتعرض لهذه العقيدة بعناية وعمق ووضعها في موضعها الشمولي المناسب في قلب سياق العلاقة والحوار الإيجابي بين الديانتين. خاصة وأن السبب الحقيقي لهذه المواجهة العقيدية هو في حقيقته خطأ الطرفين في فهم جوهر القضية وعدم الالتفات إلى مقولات الطرف الآخر بشأنها. ومما يجعل مهمة

---

* دكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بانسلفينيا، ١٩٧٢، ورئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ واشنطن.

التفاهم والتواصل أشد صعوبة هو أن المسيحية لا تكاد تعترف بمشروعية الطرف الآخر فبنت العلاقة على أساس من المواجهة والعداء. وفي نفس الوقت فإن علينا أن ندرك أن العبء الأكبر في إدارة الحوار حول هذه القضية إنما يقع على عاتق المسلمين لتحقيق التواصل وفتح باب الحوار حيث أنهم هم الذين تعرضوا ابتداءً لعقيدة الصلب بالتفنيد والإنكار.

وأول خطوة لتصحيح قواعد الحوار حول هذه القضية المهمّة أن يكون جوهر الحوار فيها مبنياً على أساس العرض القرآني الذي أثار هذه القضية في الإسلام ابتداءً، وأن يتم العرض بشكل شامل متكامل لجوانب هذا الحوار القرآني مع المسيحية، وفهم جوانب هذا العرض وغاياته ضمن الظرف الزماني والمكاني الذي وجه فيه الخطاب القرآني بادئ ذي بدء.

وفي خضم المعركة بين الإسلام والمسيحية وما نلمس فيها من جهود التبشير والاستشراق في انتقاص قدر الإسلام وتشويه صورته وسمعته، وما يقابل ذلك من ازدراء العقائد الكنسية والحط من شأنها لذلك لا بدّ لنا أن نتساءل عمّا إذا كانت أصول هذه المعركة ترجع إلى أن القرآن الكريم قد تعرض بالنقد والتصحيح لما لحق بالمسيحية من تحريف وخلل أصاب قواعد بنائها، خاصة ما يتعلق بقضية تأليه السيّد المسيح، كما أن لنا أن نتساءل هل هذه الملاحاة إنما تنحصر في قضية الحط من شأن رموز المسيحية ترى أيهدف موقف المسلمين إزاءها إلى الطعن في مصداقيتها والتقليل من شأنها؟ أم أن الأمر في حقيقته أعم وأعمق من ذلك؟ وهل أن سطحية العرض وضراوة الصراع هي التي حجبت جوهر القضايا وأعمت المتصارعين عن حقيقة مدلول التعارض والاختلاف؟

وإذا كنا على علم وثقة من عمق معاني القرآن الكريم وسمو مقاصده وشمولية عرضه فإنه لا بُدّ لنا أن نعيد النظر في فهم العرض القرآني وأن نلم بكل جوانبه حتى يمكننا أن نعلم دلالة الموقف القرآني الجازم الذي لا يتزحزح ولا يهادن في أمر إنكار عقيدة الصلب.

وأول ما يلفت النظر أن القرآن الكريم الذي يتصدى بالإنكار والتفنيد لعقيدة الصلب فإن ذلك لا يصدر عن روح عداء لصاحب النصرانية، بل إنه يقف منه موقف المجلّ المكرم الذي لا يتوانى عن الدفاع عنه وعن أمّه أمام كل أنواع محاولات الحط من قدره وتشويه مقامه.

والعجيب أيضاً أن الإسلام وهو الدين الذي نزل أول ما نزل في جوار الوثنيين العرب الذين ليس لهم دراية أو عناية تذكر بدين النصرانية والذي يسهل على الإسلام الطعن فيه لو كان موقف الإسلام يصدر عن عداء بل نجده على العكس من ذلك يعترف لصاحب النصرانية بكل المعجزات والخوارق التي تنسب إليه طفلاً لعذراء وصاحب خوارق، ومعجزات الخلق، وإحياء الأموات، وهي أمور ليس أيسر على العدو من إنكارها والطعن المقنّع ـ في دعاوى أصحابها ـ بالكذب والتزوير.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٤٢)، ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (آل عمران:٤٥-٤٩).

بل لا يتورع القرآن الكريم أن يجل ويبجل الصالحين من أهل الكتاب وأتباع النصرانية:

﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١١٣-١١٥)، ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد:٢٧)، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦).

فلو كان الأمر أمر ملاحاة وطعن لكان أولى بالقرآن الكريم وهو ينزل عربياً يخاطب العرب الأميين الوثنيين أن ينكر على النصرانية دعاوى المعجزات والخوارق التي لا يسهل على من لم يلمسها بيده ويشاهدها بعينه أن يصدقها أو يؤمن بها، بل إن كثيراً ممن عاصروها وشاهدوها من بني إسرائيل انتهوا لأسباب شتى إلى إنكارها وإنكار مقام صاحبها.

ولكن العجيب حقاً أن يسلم القرآن الكريم للنصرانية بمدهش الخوارق وعظيم المعجزات ثم هو ينكر عليها أشد الإنكار دعوى الصلب وما يترتب عليها من عقيدة تمنح البشرية العفو والغفران الرباني عما ارتكبه آدم أبو البشرية من ظلم وعصيان.

إن من أراد أن يهدم النصرانية عداءً وعدواناً فإن الأولى به أن يطعن في دعوى الخوارق والمعجزات، خاصة وأنه في ذلك مؤيد ولن يكون أول من يطعن فيها، وأن من كان يريد الهدم والتشويه ظلماً وحسداً وعدواناً فليس من الحكمة أن يطعن في دعوى خير تهدف إلى العفو والتسامح والغفران ثم هو يسلم في تجله لما يصعب على عقل البشر في مألوف عادتهم قبوله والتصديق به.

إن القرآن ليس من الغفلة حتى يقع في شيء من هذه الأخطاء البشعة التي لا تخفى على عاقل أو تتعارض وما بني عليه القرآن من قيم الحق والعدل والرحمة.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (التوبة:٣٣)، ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾(يونس:٣٥)، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء:٥٨)، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ (الشورى:١٧)، ﴿فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:٥٤)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

لابد أن تكون دلالة الأمر الذي يتعرض له القرآن الكريم أعظم من ذلك ولابد أن القضية التي يطرحها الإسلام على غير الشاكلة التي ينحدر إليها الجدل وتنتهي إليها الملاحاة وينجم عنها كل ذلك القدر من العداوة وسوء الظن.

القضية كما تبدو من العرض السطحي يظن بها النصارى أن الإسلام برفضه عقيدة الصلب التي تصور الصلب تضحية عيسى الابن لتكون تلك التضحية سبباً في غفران الله للخطيئة الأولى التي ارتكبها الإنسان والتي بقي الإنسان يحمل أوزارها وكانت سبباً في غضب الله على بني الإنسان وكأن الإسلام بذلك الرفض يرفض ما تتضمنه وتهدف إليه عقيدة الصلب من روح الحب والتضحية والتسامح والغفران.

وبغض النظر عن أي اعتبار آخر فإن من كان على أي قدر من معرفة بالقرآن الكريم، فإنه لا يمكنه أن يسلم لأحد بأن القرآن يرفض روح الحب والتضحية والتسامح والغفران أو ينكرها ويهدمها.

لذلك فإنه لإدراك عمق هذه القضية، فإنه لا بدّ لنا من نظرة شمولية لنصوص القرآن الكريم إلى عقيدة الصلب وما يراه الإسلام فيها ويوجه خطابه بشأنها، على

أساس من عرضه، وسياقه، وتكامل نصوصه، متوخين أن لا يتم ذلك العرض على أساس تصور مسبق، يستمد روحه من أدبيات الإسرائيليات ورفض اليهودية للنصرانية وصاحبها والطعن في مقامهما.

ومن الواضح أن الإسلام يعترف بالنصرانية ويجلّها ويجلّ صاحبها ويبوءه أعلى مقامات التكريم الإسلامي بوصفه رسولاً أميناً صاحب رسالة، ويصدقه ويذود عنه ويحترم رسالته التي يجلّ القرآن الكريم فيها بخاصة معاني الحب والرأفة والرحمة.

فما هو على وجه الحقيقة موطن الخلاف وسوء الفهم والظن؟ إن من المهم أن ندرك أن الإسلام بإنكاره عقيدة الصلب لا ينكر بالضرورة واقعة الصلب وأنها وقعت حقيقةً. ولكن ما يقرره الإسلام أن عيسى عليه السلام لم يقتل صلباً، وهذا لا يعني أن عيسى عليه السلام في السياق القرآني لم يوضع على الصليب ولكن القرآن بالرغم من ذلك وبالرغم من تقبله أن عيسى عليه السلام قد وضع على الصليب إلاّ أن القرآن يؤكد أن السيد المسيح لم يمت صلباً على الصليب، والأمر المهم هنا ليس أمر واقعة الصلب، ولكن الأمر المهم أن اعتبار قتل الإنسان للسيد المسيح صلباً كان سبباً في زوال سخط الله على آدم وذريته لمعصيته ومجلبة لرضاه ووسيلة إلى عفوه وغفرانه للإنسان.

إن التسليم بأن تكون جريمة الإنسان الثانية الأكبر وهي قتل السيد المسيح قصداً من قبل بعض البشر - الذي يظنه المسيحيون قد قتل صلباً بالفعل - وسيلة مقبولة للعفو والغفران الإلهي لجريمة العصيان الأولى التي ارتكبها الإنسان ونفي صفة الجريمة عن قصد قتل السيد المسيح ظلماً وعدواناً وإنكاراً لدعوة الحق.

وسبب الإنكار الإسلامي لهذه القضية والنتائج المترتبة عليها يسهل فهمهما إذا أدركنا موضع العدل في ميزان الإسلام وميزان النسيج القرآني. وعلى أساس من هذا الميزان يسهل إدراك أن فكرة مكافأة الجريمة التي تمثل جوهر عقيدة الصلب تتنافى وطبيعة الشهادة القرآنية وميزانها لأنها تنافي أبسط قواعد العدل الإلهي وأهداف الرسالات السماوية وأساليبها في هداية البشر وتقويمهم.

فالغفران في ميزان العدل لا يكون بمكافأة الجريمة والعصيان، وإلاّ فلماذا كان الغضب الإلهي على من ارتكب الجريمة الأولى ووقع في العصيان ابتداءً.

إن العدل في الغفران لا يكون إلاّ بوقوع العقاب، أو بتقرّب العاصي بالطاعة والإحسان، أو يكون بطلب التوبة والغفران، وقد يقع الغفران في أشد الحالات كرماً

وإنعاماً بصدور العفو من صاحب الحق والقدرة بدءاً ودون طلب من الجاني أو سبيلاً إلى مصلحة أو مقابل. أما أن يكون الغفران مكافأة لمزيد من الجريمة والأذى والعصيان فذلك ليس من طبيعة العدل أو وسيلة مفهومة أو مقبولة من وسائل العظة والعبرة وهداية البشر.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم:٢١)، ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:٥٤)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد:٢٧)، ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:١٧)، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (النساء:١٥٧).

وإذا كان القرآن الكريم يؤكد أن السيد المسيح لم يمت ولم يقتل صلباً، بل شبه ذلك للناس وبدا لهم ذلك الأمر ظاهراً، وهو على الحقيقة غير ذلك، حيث إن القرآن الكريم يؤكد أن السيد المسيح لم يقتل ولم يمت حقيقةً في حادثة الصلب ورد الله عن نبيه كيد بني إسرائيل:

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة:١١٠)، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء:١٥٧-١٥٨).

مما سبق يتبين أن الخلاف والصدام بين النصرانية والإسلام بشأن عقيدة الصلب لا يتعلق بالجوهر في معاني الخير والتسامح ولا خلاف بين الطرفين في أمرهما ولكن الخلاف بينهما هو في تحديد الوقائع المادية ودلالاتها وأسلوب توجيه الخطاب بشأنها وشأن العبرة منها.

ففي الجوهر لا نزاع في أن الإسلام يجلّ النصرانية رسالة سماوية مطهرة من عند الله ويجلّ فيها معاني المحبة والتسامح والغفران.

ولا ينازع أحد في أن النصرانية دين رباني - وهكذا أقرّ القرآن الكريم - لا تقصد إلى إنكار العدل وإباحة الجريمة أو المكافأة عليها أو إلقاء الحبل على الغارب للإنسان، ليتمادى في الجريمة والمعصية، والبعد عن الله، وأن تشجعه على المبالغة في أذى الناس ومحاربة الحق وقتل الأنبياء والأبرياء.

إن الخلاف على صورته الشائعة لا يمثل العرض القرآني ولا المعاني القرآنية والقضايا الأساسية التي يهدف إليها القرآن من تصحيح حادثة الصلب وما يترتب على ذلك من رفض عقيدة الصلب لما في تلك العقيدة من دلالات غير منظورة ولا مرغوبة غاب عنها البال وعميت عنها الأنظار.

إن كلا الطرفين أهل الإسلام وأهل النصرانية على اتفاق في الغايات والمعاني وإذا كان من خلاف، فإنما ينتج عن أخطاء تتعلق بأسلوب الخطاب ولذلك فإن من المهم في هذا الحوار أن يفهم غاية كل فريق من الفريقين وأسلوب كل عرض من العرضين ومنهجهما وتصحيح مسار علاقة التقدير والمودة التي تنجم عن أصل حسن النوايا وحسن القصد وعن أصل الإيمان المشترك للإفادة من الحوار وتصحيح ما يستحق التصحيح من المناهج والأساليب تحقيقاً لغايات الإفادة من عطاء هذه المناهج في سعي كل من الطرفين نحو الحق والخير.

ولعل ما سبق من توضيح لغايات الاستدراكات القرآنية على مفردات عقيدة الصلب يؤدي إلى تخطي عوائق الفهم، ويفسح المجال للسعي نحو الحوار البناء، وفهم كل طرف لأسلوب خطاب الطرف الآخر، والغايات الخيرة الكامنة في ثناياه، كما يفسح المجال لعرض أكثر تكاملاً وتناغماً للعقائد والمناهج وأساليب العرض بين الإسلام والنصرانية.

فعقيدة الصلب النصرانية تمثل في منطق الإسلام إشكالية كبرى حين تنتهي إلى عقيدة إشراك، وقولهم بـ "التثليث" بديلاً لعقيدة تنزيه التوحيد، حيث يجعل التثليث، السيد المسيح عيسى بن مريم ـ بشري الهيئة ـ لخوارقه إلهاً، وتجعل الإله موزعاً بين الهيئة البشرية، في شخص السيد المسيح، والإطلاق والتجريد في هيئة الأب ثالوثاً، ركنه الثالث هو الروح القدس، وذلك ليمثل حلقة الوصل بين المادي المحدود والمطلق المنزه، فتمنح المحدود، قدرة الخوارق وطاقة الإعجاز.

وعقيدة الصلب تسبب في منطق الإسلام أيضاً مشكلة أخرى تهدم مبدأً مهماً من مبادئ الفطرة الإنسانية، وهو مبدأ المسئولية، والذي يعدّ من أهم مبادئ الإسلام وقواعده الأساسية اللصيقة بمبدأ العدل، فكل إنسان في منطق الإسلام مسئول عن عمله، وقيمته تكمن في عمله وإرادته، لا في لونه أو عرقه أو نسبه، ولكن عقيدة الصلب، حتى تبرر الصلب، تلغي مبدأ المسئولية، وتحمل الأبناء وزر الآباء، ومسئولية تلك الأوزار، وهي بذلك تهدم العلاقة الإنسانية السوية بين الجريمة والعقاب، كما

تقلب مفهوم التضحية بوصفه تعبيراً سامياً عن معاني المحبة الإيجابية الخيرة نحو المحبوب، إلى وسيلة لتبرير أعمال الشر والأذى ونوازعه، وإضفاء المشروعية عليها، حين تكون التضحية للمحبوب مبرراً لإطلاق اليد بالشر والجريمة والأذى، وحين تكون تضحية المحب ـ وهو السيد المسيح ـ هي جريمة المحبوب ـ وهو الإنسان ــ لينال جزاء جريمته جائزة العفو والمغفرة.

وبغض النظر عن تناقضات عقيدة الصلب فإن الإسلام في خطابه لتصحيح عقيدة الصلب، فإنّه يتفق معها في كليات أركانها، واختلافه في الحقيقة معها، إنما يكمن في تفاصيل تراكيبها، وما تحمله من تناقضات مع أساسيات الفطرة الإنسانية.

إن الإسلام في اتفاقه مع النصرانية في الكليات، يعترف بألوهية الإله، وهو يعترف بالخوارق، وهو يعترف بخطيئة الإنسان، وهو يعترف بالتسامح والغفران، ولكن الإسلام في خطابه القرآني لتصحيح عقيدة الصلب يعيد رصف هذه المعاني والمفاهيم في منظومة تتسم بالتناسق والتكامل، وتستجيب للفطرة الإنسانية وتسخرها لتحقيق غاياتها النبيلة التي تهدف إليها كلا الديانتين.

ولمزيد من وضوح الصورة فقد يكون من المفيد أن نستعرض كيف عالج القرآن الكريم هذه العلاقات، وكيف بسط هذه القضايا، متوخياً في دقة، مبادئ التوحيد والفطرة. فالإسلام يعترف مثله كمثل النصرانية بألوهية الإله، ولكنه يحافظ فيها على مبدأ التوحيد، ويبقي لها طبيعة الإطلاق والتجريد، منزهة عن محدودية المادة:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١-٤)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١)، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ (النساء:١٧١).

والإسلام يرجع قدرة الخلق لله وحده وكل ماعداه فإنما يستمد القدرة منه، والخوارق والمعجزات إنما هي من نوع قدرته وإعجازه في خلق الكون يستوي في ذلك كل الخلائق ما اضطرد أقدارها وسننها وما لم يضطرد. ولذلك فإن الخوارق من أمر السيد المسيح لا تغيّر من كونه خلق من خلق الله وبعض من خوارق آياته أيده فيها بروح القدس الذي هو من أمر الله وقدرته دون مساس بإطلاق ذاته الإلهية وتنزيهها عن قيد المادة وحدودها.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩)، ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء:١٧١)، ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة:٨٧)، ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٤٩)، ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾ (المؤمنون:٥٠)، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة:١٧)، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ (المائدة:٧٣)، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (غافر:٦٢).

والإسلام يرى في غاية خلق الإنسان الابتلاء والامتحان والمسؤولية التي يقرر به كل فرد من بني الإنسان موضعه ومصيره العادل "فكل شاة معلقة من عرقوبها" ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٣١ـ٣٩)، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٢ـ٢٣)، ﴿فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى﴾ (طه:١١٧ـ١١٨)، ﴿وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم

مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢١-١٢٤).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزة:٧ــ٨)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر:٣٨)، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة:٤٨)، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١).

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام:١٦٤)، ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسرار:١٥).

والعدل والمسئولية لا يناقضان معاني الرحمة والعفو والغفران فكلها من أصل طبع الإنسان وهي من وسائل تزكيته وتصفية معدنه فالخطأ والذنب وما يترتب عليهما من حسن المسئولية مدعاة الذكر والتوبة والتواضع وطلب العفو والمغفرة ومجلبة الرحمة والعمل الصالح.

﴿فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:٥٤)، ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم:٢١)، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد:٢٧)، ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٦ــ١٠٧)، ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:١٧)، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران:١٣٥-١٣٦)، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣).

الواضح من سياق العرض السابق أن كلا الديانتين تنبع من نبع واحد، تتحد مرتكزاتها وتتفق غاياتها، إلاّ أن الإسلام ــ لوجه الحق ــ يتصف بضبط التركيب وتناسق الأجزاء وإحكام العرض ودقته وصفاء الرؤية ووضوحها، وهي ميزة يجب أن لا تسوء أحداً بل يجب أن يكون ذلك من دواعي إيجابية العلاقة بين الإسلام والنصرانية ومما يستدعي مشاعر احترام وحدة الغاية وتقدير مساحة المشترك وتنمية مشاعر التسامح وحسن الحوار وكبت مشاعر النفرة والعدوان.